بحثًا عن سيف «أبو ستّة»

يوميّاتٌ انتقائيةٌ من رحلةٍ معقّدةٌ بحثًا عن سيف يخصّ لاجئًا فلسطينيّاً من العام ١٩٤٨، وتبدأ بفصحٍ يهوديٍّ في أحدِ الكيبوتزات. إنَّها قصةٌ ترتكز إلى الصداقة والتضامن، ودعوةٌ إلى المساعدة❖

. أُوري ديڤيس .

. نقلها عن الإنكليزية: سماح إدريس .

الدكتور أوري ديڤيس عالمٌ أنثروبولوجي (إناسيّ). وُلد في القدس عامَ ١٩٤٣، وهو منذ العام ١٩٦٥ في طليعة المدافعين عن حقوق الإنسان، ولاسيّما الحقوق الفلسطينية، وعلى رأس الباحثين النقديين في العقيدة الصهيونية وفي إسرائيل منذ منتصف السبعينات. من منشوراته الكثيرة في هذا المجال: إسرائيل دولةُ أپارتهايد **(لندن: منشورات زَدْ، ١٩٨٧ و١٩٩٠)؛** الجنسية والدولة: دراسة مقارنة في قوانين الجنسية في إسرائيل والأردن وفلسطين وسوريا ولبنان **(ريدينج: منشورات إيثاكا، ١٩٩٧)؛** الجنسية والدولة في الشرق الأوسط: مقاربات وتطبيقات **(تحرير مشترك، سيراكيوز: منشورات جامعة سيراكيوز، ٢٠٠٠)؛ ومؤخّراً صدر له كتاب:** إسرائيل الأپارتهايدية، احتمالات النضال من الداخل **(لندن: زَدْ، ٢٠٠٣).**

والدكتور ديڤيس عضوٌ في اللجنة الإقليمية الشرقأوسطية للمجلة العالمية، دراسات الجنسية (Citizenship Studies)**؛ وزميلٌ باحثٌ فخريّ في معهد الدراسات العربية والإسلامية في جامعة اكسِترْ (Exeter)، وكذلك في معهد الدراسات الإسلامية والشرقأوسطية في جامعة دورهام (Durham)؛ ورئيسُ مجلس «البيت»: جمعية للدفاع عن حقوق الإنسان في إسرائيل؛ ورئيسُ مجلس «مايا‌پ»: الحركة المناهضة للأپارتهايد الإسرائيلي في فلسطين؛ وعضوٌ مؤسّس ومديرٌ أعلى للشؤون السياسية والقانونية في مجموعات الفسيفساء: التعاونية الإسكانية المتعددة الجنسيات في إسرائيل؛ وعضوٌ مراقبٌ في المجلس الوطني الفلسطيني.**

❖ ـ أودّ شكرَ شيلي ناتيف لقراءتها مسوّدةَ هذه الورقة، ولملاحظاتها الثاقبة والمفيدة إلى أبعد الحدود. كما أشكر ريڤيتال سيلاً لتحريرها الرائع وأشكر أيضًا ميسر أبو علي لمساعدتها في قراءة النص العربي.

نير يتسحاق في خارطة (خدمة غوغل).

سلمان أبو ستة

بـــدأت الحكايةُ كلُّها حين انضممتُ إلى شيلي ناتيف، وهي صديقةٌ ناشطةٌ في مجال الحقوق المدنية، في منزل عائلتها في كيبوتز [مزرعة جماعية صهيونية لليهود فحسب] نير يتسحاق لإحياءِ فصحٍ كيبوتزيّ مساءَ السبت ٢٣ نيسان ٢٠٠٥.

ذهبتُ إلى هناك لا لكوني صديقًا للعائلة فقط، وإنّما لكوني أنثروبولوجيّاً نقديّاً أيضًا. وثمة دافعٌ آخر، هو فضولٌ عميقٌ للعودة إلى زيارة منطقةٍ سَبَقَ أن أدّيْتُ فيها، قبل أربعين عامًا، الخدمةَ المدنيةَ بدلاً من التجنيد العسكري الإلزامي.

ولمّا كنت أنثروبولوجيّاً نقديّاً، فقد قمتُ بواجباتي المدرسية قبل الشروع في رحلتي. وعاونني في ذلك خبرتي، ونظامُ البحث «غُوغِلْ،» وصديقي سلمان أبو ستّة، مؤلِّفُ **أطلس فلسطين ١٩٤٨** والمرجعُ الأبرزُ عن النكبة الفلسطينية.

من صديقي سلمان عَلِمْتُ أنّ كيبوتز نير يتسحاق بُنيَ عام ١٩٤٦، وأنّ ابنَ مختارها، وهو ضابطُ مخابراتٍ ناطقٌ بالعربية ويُدعى بَني ميتيف (موتيلوف)، كان عنصرًا أساسيّاً في قيادة التطهير العِرقي الذي مارستْه منظمةُ «پالماخ» ضدّ المنطقة الممتدّة بين رفح وغزّة بأسرها أثناء النكبة (كانون الأول ١٩٤٨).

عند استخدام نظام البحث «غوغل» عثرتُ على خارطةٍ تُظْهر نير يتسحاق (أنظر أعلاه)، وننشرها بإذن من:

http://georgraphy.about.com/gi/dynamic/offsite.htm?Site=http://www.m%2Dw.com/cgi%ZDbin/nytmaps.pl%3Fisrael).

اليوم، نير يتسحاق هي واحدةٌ من ٣١ مستعمَرةً ريفيةً في الضواحي، مخصّصةً لليهود فقط، وخاضعةً لولاية «المجلس الإقليمي اشكول.» وتقع قريبةً من السيّاج البغيض الذي بنتْه الحكومةُ الإسرائيليةُ، على ما تَزْعم، لأسباب أمنية، ولكنّها بنته، في الحقيقة، من أجل إبقاء سيطرتها على قطاع غزة. وقد لفتتْ شيلي ناتيف نظري إلى الرسالة الرمزية التي يؤدِّيها اللوغو (الرمزُ) الرسمي للمجلس الإقليمي اشكول (أنظر الصفحة التالية)، والذي يصوّر حقلاً محروثًا تُطوِّقه سنبلةُ قمحٍ، تتحوّلُ ساقُها إلى سياجٍ من الأسلاكِ الشائكة.

اللوغو الرسمي لـ «المجلس الإقليمي أشكول».

بعد حوالى أسبوعين من الفصح اليهودي (٤ أيار ٢٠٠٥) تلقّيتُ من سلمان الرسالةَ التي دفعتْني في رحلة البحث عن متاعه المتوارَث، ألا وهو سيفٌ ضاع أثناء الغزو الإسرائيلي للمنطقة في العامين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ وما تلاه من احتلالٍ وضمٍّ:

«عزيزي أوري،

إنْ شئتَ أن تتابعَ الأمرَ، فيُمْكنك أن تَطْلب من بني موتيلوف أن يعيدَ بعضَ الأشياء المسروقة من بيت أبي: سيفَه (القديمَ والقيّم)، ووسامًا يعود إلى الحرب العالمية الأولى، وشهاداتِ إخوتي في القانون وقبولِهم في الجامعة، ومراسلاتٍ مع القادة العرب في الأردن ومصر، وصورًا عائلية، والمكتبةَ.

ضابطُ منظمة البالماخ الذي كان معه هو آرييه أهاروني، مؤلّفُ كتاب **مُرشّح للخيانة** [A Candidate for Treason]، وفيه يعترف بأخذ ممتلكاتنا وبتسميمِ آبارِ غزّة.

أطيب تحياتي

سلمان.»

الفصح في الكيبوتز

سبعمئة شخص، يتوزّعون بين أعضاء الكيبوتز وضيوفِهم، ملأوا قاعةَ العشاء في الكيبوتز إلى أقصى سعتها. وقد تخلّل العرضَ، الذي أقامه مغنٍّ وعازفا غيتارٍ مستأجَرون، مقطوعاتٌ أدّاها أطفالُ الكيبوتز، وقراءاتٌ من **هغّادة كيبوتز** معدّةٌ سلفًا وتوالى على تقديمها أعضاءٌ من الكيبوتز بصوتٍ جهير.

إنّ هذه النسخةَ الهزيلةَ من **الهغّادة** ـ وهي خبيصةٌ متضاربةٌ من المقتطفات المأخوذة من التراث الأرثوذكسي، والعبادة الوثنية للطبيعة في فصل الربيع، والتلقين السياسي الصهيوني ـ هي النصُّ الرسمي الذي يعطى إلى كل الكيبوتزات المنضوية في اتحاد كيبوتزات «ها-كيبوتز ها-آرتزي ها-شومر ها-تزائير.» وهذا النص لا يُهْمِل ذِكْرَ العقاب الجماعي الإلهي الذي أُوقِعَ على شعبِ مصر، ولا العودةَ إلى صهيون [أرضِ الميعاد]، ويوحي من ثمّ بوجود حَبْلٍ استيطانيّ صهيونيّ سُرِّيّ يربط اتحادَ الكيبوتزات أعلاه بحركة غوش ايمونيم.

نفّذ العارضون مهمّاتهم على ما يقتضيه الواجبُ. وكان أبرزَ ما في السهرة سلسلةٌ من الأغاني الصهيونية التي تمجِّد الطبيعةَ الرومنطيقية، والمروجَ الرعوية، والرعاةَ الريفيين. وقد وجَدتُ ذلك أمرًا سورياليّاً إلى حدٍّ ما، لأنّه كان يجري في مجتمعٍ للطبقات الوسطى، منخرطٍ حتى أذنيْه في الحسابات العقارية، وأبعدَ ما يكون عن حياة الأيام الخوالي الريفيةِ القروية، كما هو حالُ مجتمعِ الكيبوتز اليومَ في معظمه.

كان ثمةَ عنصرٌ واحدٌ فحسب، تلك الليلةَ في فصح الكيبوتز في نير يتسحاق، ذو صلةٍ بالسياق الذي يعزِّز العيشَ في ذلك الكيبوتز وفي البلاد بأَسْرِها، وأقصد سياقَ النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني المديد. وهذا العنصر هو نسخةٌ جميلةٌ من أغنية «جَدْيٌ واحدٌ أوحدُ» لهافا اَلْبرستين. تُشير أغنية اَلْبرستين إلى تقاليدَ مختلفةٍ للفصح اليهودي، ولكنْ مع «فتلةٍ» نقديةٍ (أنظر المقتطفَ أدناه):

«ولماذا تغنّي فجأةً

عن الجَدْيِ الواحدِ الأوحد؟

الربيعُ لم يحلَّ بعدُ، ولا جاء الفصحُ.

وماذا تغيَّر بالنسبة إليك،

ماذا تغيَّر؟

أنا الذي تغيّرتُ

هذه السنةَ.

ففي الليالي الأُخرى كلِّها، في الليالي الأُخرى كلِّها،

كانت لديّ أربعةُ أسئلةٍ فقط،

وأما الليلةَ فأريد أن أسألَ سؤالاً آخر:

إلامَ، بعدُ، تدورُ هذه الحلقةُ المفْرغة:

المضطَهِدُ والمضطَهَدُ،

المُعَذِّبَ والمعذَّبُ؟

متى يتوقّف هذا الجنونُ؟»

لنعد الآن إلى اقتراح (وطَلَب) سلمان بأن «أتابعَ الأمرَ» بقصد تحديد مكانِ بعضِ الأشياء المسروقة من بيت أبيه أثناء غزو ١٩٤٨.

تساءلتُ عن احتمالات النجاح؛ ذلك أنّ اسمي قد لا يزال مطبوعًا في أذهان مواطني دولة إسرائيل، من الفئة العمرية التي أُوشك على مقابلتها، بأنّني رمزٌ من رموز معارضة الصهيونية. ولكنْ يبدو أنّ معارضة الصهيونية، على ما رَشَحَ من الذاكرةِ التاريخية لمن سأُقابلهم من قُدامى المؤسسة الأمنية لدولة إسرائيل، لم تنطبعْ في أذهانهم، أو أنّهم كانوا من الكِبَرِ ولِينِ العريكةِ بحيث إنّهم سامحوا أو نَسَوْا.

السيدة لينا ميتيف (أرملة)

أجريتُ مقابلةً مع لينا ميتيف في منزلها في ٢٩ أيلول ٢٠٠٥، بعد شهورٍ قليلةٍ من وفاة زوجها.

حين أخبرتُها أنّني طلبتُ مقابلتَها نيابةً عن سلمان أبو ستّة لكي أحاولَ تحديدَ مكان سيف أبيه القديم والقيّم ومكتبتِه، اضطربتْ قليلاً ثم قالت إنّها لا تَعْلم شيئًا عن السيف أو المكتبة، ولا تَذْكر أنّ زوجَها ذَكَرَ شيئًا من هذا القبيل. لكنّها اقترحتْ أن أُجري مقابلةً مع المحاربين القدامى في كيبوتز نيريم، وعَرضتْ أن تعرّفني إلى أمنون داغيئيلي فورًا.

«بَني لم يكن ليَعْلم شيئًا عن السيف أو المكتبة،» قال داغيئيلي. «فقد وصل إلى مسرح الأحداث عامَ ١٩٤٨، في حين أنّ معين أبو ستّة احتُلّت عامَ ١٩٤٧. عليكَ أن تتحدّث إلى أرييه (ستينه) أهاروني. أو الأفضل أن تتحدث إلى الضابط آمرِ الوحدة [يحيده] الذي احتلّ معين أبو ستّة، واسمُه الجنرال أبراهام (برْن) أَدَنْ. لينا تَعْرف رقمَ تلفونه.»

الجنرال المتقاعد أبراهام (برْن) أَدَن

الأربعاء ٥ تشرين الأول، الساعة الخامسة من بعد الظهر، كان الجنرالُ المتقاعدُ أبراهام (برْن) أَدَن، البالغُ من العمر ٧٩ عامًا، ينتظر، مرتديًا سروالاً قصيرًا، على الرصيف أمام منزله، لكي يتيقّنَ من أنّني لن أخطئَ العنوان.

حالاً عرف أَدَنْ اسمَ أبو ستّة، الذي يتذكّره قائدًا للثورة العربية في المنطقة الجنوبية، بل ويَمْلك أَدَنْ في منزله صورتيْن شمسيتيْن أُعطيتا إليه «تذكارًا» (لكنّه لم يستطع أن يتذكّر مَنِ المُعطي). على الهامش الأسفل من إحدى الصورتيْن كُتِب بالعبرية بخطِّ أَدَنْ: «عبد الله وإبراهيم أبو ستّة، قائدا التمرّد في النقب.» أما الصورة الثانية فلا تعليقَ تحتها، وقد عَرَفَها سلمان أبو ستّة في ما بعدُ بأنّها صورةُ عبد الله، ابنِ عمّه.

كان أَدَنْ آنذاك قائدَ الفرقة [بيلوغاه] التي احتلّت خربةَ معين في ١٤ أيار ١٩٤٨. وما إنْ تغلّب أَدَنْ ورجالُه على المقاومة التي واجهوها هناك، وكانت مقاومةً عنيدةً إلى حدٍّ ما، حتى اتّخذوا مواقعَ لهم على رأس التلّة. هناك وجدوا بيتًا متواضعًا مصنوعًا من القرميد الطيني، قاموا بتفجيره من أساسه، ومخزنًا كبيرًا للأسلحة إلى جانبه.

سألتُ: «إذا كان البيتُ قد دُمِّر هو وكلُّ محتوياته، فكيف عَثرتَ على هاتيْن الصورتيْن؟»

عجز أَدَنْ عن تذكّر طريقة توالي الأحداث. تذكّر أنّ المفوّض الثقافي للقوات المسلّحة آنذاك، أرييه (ستينه) أهاروني، أعطاه الصورتيْن، لكنّه ليس متيقّنًا من كيفية حصول أهاروني عليهما. كان أَدَنْ مرتبكًا بسبب «المنطقة العمياء» التي بدا أنّها انبثقتْ عند ذلك المنعطف في المقابلة؛ فقد افترَضَ على الدوام أنّ موقع أهاروني قد كان في مكانٍ آخر من النقب.

الظاهر أنّه، فضلاً عن البيت الطيني الذي فجّروه، أعلى التلّة، كان ثمة بيتٌ آخر، تحته. وكان بيتًا كبيرًا أبيضَ مصنوعًا من الحجر. ظنّ أَدَنْ أنّ هذا البيت قد يكون هو بيتَ عبد الله أبو ستّة. وقد بقي، هو وجنودُه، على أعلى التلّة طوالَ اليوم، ثم عادوا إلى قاعدتهم، من دون أن يدخلوا هذا البيت الثاني، الأبهى.

أما اليوم، فقد تَحوّل أعلى التلّة التي احتلّتها قواتُ أَدَنْ عامَ ١٩٤٨ إلى مقبرة كيبوتز نيريم.

يفصّل كتابُ أَدَنْ، **العَلَمُ الحِبْري** [بالعبرية]، حكايةَ قوّاته في تلك المنطقة. فسَريّتُهُ [كيتاه] كانت أُولى السرايا التي وصلتْ إلى أُمْ رشراش (التي غُيِّر اسمُها إلى إيلات في إسرائيل)، وكان أَدَن هو مَنْ رفَعَ العلمَ الإسرائيلي على العمود. ولمّا لم تكن في حوزتهم أعلامٌ رسميةٌ إسرائيلية، فقد ارتجلوا ولوّنوا بالحِبْر نجمةَ داوود والخطّيْن الأزرقيْن على قطعة قماشٍ بيضاء. وكان ذلك كافيًا.

بين تاريخ عودتهم إلى قاعدتهم، وإلى حين إعادة احتلال المنطقة في كانون الأول ١٩٤٨ على يد الفرقة [أوغده] الثامنة من غولاني، وهي إحدى ثلاث سرايا، وكانت تحت قيادة أَدَنْ، لم توجدْ أيةُ قوات إسرائيلية في منطقة خربة معين. وبعد غزو كانون الأول تمركزتْ فرقةُ [پلوغَه] هناك بشكلٍ دائم.

في نيسان ١٩٤٩ قامت الفرقةُ المتمركزة في معين أبو ستّة، والقادمةُ من ناحية نير يستحاق، بالسيطرة على القاعدة الأمامية التي احتلّتها. وانتقل كيبوتز نيريم إلى المنزل الحجري الأبيض، الذي افتُرِضَ أنّه منزلُ أبو ستّة. ولم يعد المنزل موجودًا اليوم.

قلتُ: «هل يُمْكنكَ أن تتصل بأرييه أهاروني، قبل أن أغادركَ، لأرى كيف حصل على الصورتيْن؟»

لم يجد أَدَنْ في طلبي بأسًا. وفي أقلّ من خمس دقائق كان يدردش بمرح مع أرييه أهاروني، رفيقِه القديم في السلاح. وأثناء المحادثة انجلت «المنطقةُ العمياء»: لقد كان أهاروني تابعًا لسَريّة أَدَنْ في ذلك الوقت.

عرّفني أَدَنْ إلى أهاروني، ودبّرتُ موعدًا معه في منزله في كيبوتز «بيت الفا» خلال الأسبوعيْن التالييْن.

قبل أن أغادر، طلبتُ من أَدَنْ أن يصوّر لي صورتَيْ أبو ستّة لكي أستطيعَ أن أحوّلَهما إلى سلمان، فأجابني إلى طلبي بسرورٍ. وهذه هي النتائج المتواضعة الأولى لبحثي:

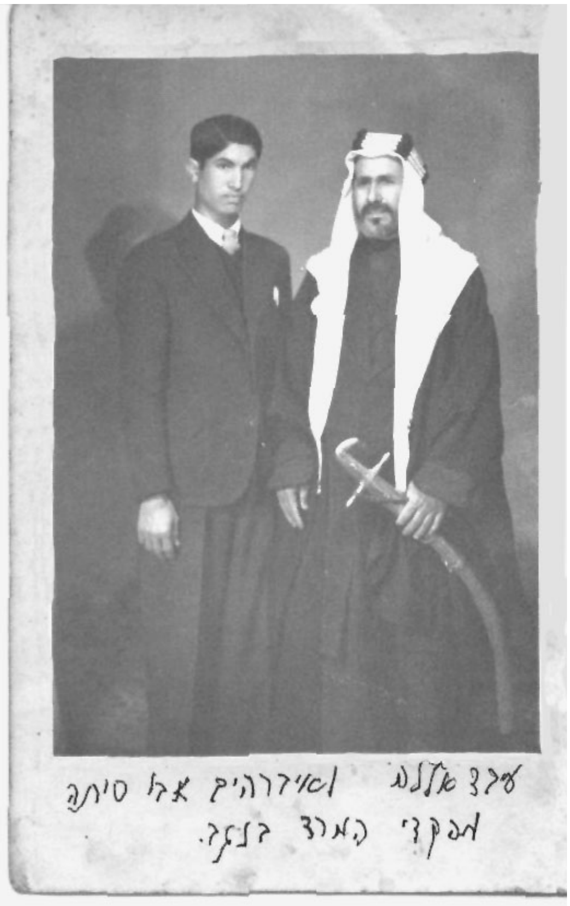

حسين أبو ستة [الأب]، وإبراهيم [الولد البكْر]، وقد عُرّفا بأنّهما قائدا التمرُّد في النقب (لكنّ التعليق العبري يَذْكر خطأً أنّهما «عبد اللّه وإبراهيم أبو ستة»).

عبد اللّه (ابن العمّ).

وجاء ردُّ سلمان، الفوريُّ تقريبًا، على الشكل التالي: «رائع، را....ئع. أنا في ذروة الإثارة. شكرًا. شكرًا. أشعر أنّ روحي تستعيد شبابَها. مزيدًا، رجاءً. لا يسعني الانتظار...» وما لبث أن تبعتْ ذلك معلوماتٌ إضافية:

«عزيزي أوري،

أرسلتُ الصورتيْن إلى إخويّ. وكانا مُنْتَشيْن. لقد تمّ التقاطهُما في أوائل الأربعينيات، إمّا في القدس (على الأرجح) أو القاهرة. الأولى هي لأبي مع ابنه البِكْر الذي كان يَدْرس القانون. والثانية هي لابن عمّي الذي ترعرع في كنف أبي كأنّه ولدُه، وكان من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية منذ الثورة الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩). في ما يلي ما قاله أهاروني عن الهجوم على معين أبو ستّة، قريتِنا:

«خربة معين. كانت كلُّ الكتيبة تعرف الاسم؛ إنّه حيث يعيش عبد اللّه أبو ستة، قائدُ عصابات النقب، والرجلُ الذي نَشَرَ الخوفَ في كلّ مكان؛ الاسمُ الذي كان كلُّ بدويّ ينطقه برهبةٍ واحترام؛ العائلةُ الوجيهةُ التي حَكَمت النقبَ بأكمله، وكانت ذاتَ صلات بالبلاد المجاورة. لقد كان احتلالُ منزلِ أبو ستة أمرًا مُغْريًا بالفعل.

ذهبنا إلى منزل أبو ستّة وصُعِقنا. ففي وسط الصحراء ثراءٌ لا يصدَّق: أثاثٌ مترف، ملابسُ شرقيةٌ وأوروبيةٌ كثيرة، راديو، شاحنة، سيفٌ بدوي جميلٌ مصنوعٌ من الفضّة، أرشيفٌ ضخمٌ هامٌّ من الصور والوثائق، رسائلُ من الأمير عبد اللّه من الأردن إلى حسن البنّا (زعيم الإخوان المسلمين في مصر)؛ شهادةُ محاماة تخصّ أحدَ أفراد العائلة؛ كتاب **عطيل** لشكسپير بالإنجليزية إلى جانب القرآن. وبلغتْ سعادتُنا ذروتَها حين وجدنا مخزنَ الأسلحة، مع أنّه لم يكن فيه الكثير...» [انتهى كلام أهاروني].

للتاريخ ذاكرةٌ طويلة. وله طريقتُه الخاصةُ في العودة إلينا.

شكرًا من جديد. أنتظرُ المزيد.

أحرّ الأماني.

سلمان.»

في مراسلات لاحقة رشَحَ أنّه، أيّاً كان المعلِّقُ على الصورتيْن، فقد أخطأ. ذلك أنّ اسمَ أبي سلمان، أي الرجل الذي يحمل السيفَ، هو حسين، لا عبد اللّه.

والآن، وقد امتلكتُ برهانًا مصوَّرًا على وجودِ السيف، أَملِتُ في أن أتقدّم باتجاهِ تحديدِ مكانه.

الجنرال المتقاعد آرييه (ستينه) أهاروني (١)

التقيتُ بالجنرال المتقاعد آرييه (ستينه) أهاروني، البالغ ٨٣ عامًا، في كيبوتز بيت ألفا في ١٧ تشرين الأول ٢٠٠٥، لأَعْلم منه أنّه لا يملك أدنى فكرة عن المكان الذي آلَ إليه السيفُ أو المكتبةُ.

لعلّ الوثائق والملفّات الخاصة لمعين أبو ستّة [كما قال أهاروني] قد صادرتْها المخابرات. ولقد كان نهبُ الأملاك المنقولة على يد القوات الإسرائيلية في حرب ١٩٤٨ أمرًا منتشرًا، ولم يُبلَّغْ عنه كما يجب. أما قائد الكتيبة ذاتِ الصلة (الكتيبة ٨) في ذلك الوقت فكان حاييم بار – ليڤ، الذي توفّي. يائير (جيري) بوبرمان كان رئيسَ الاستخبارات في الكتيبة ٨، فلعلّه يَمْلك مفتاحًا لهذا اللغز. أهاروني اتّصل به.

كان بوبرمان يكنّ احترامًا كبيرًا لعبد الله أبو ستّة لكونه عدوًّا مرعبًا. ومنه عَلِمْتُ أنّ معين أبو ستة احتُلّت في ١٣ أيار ١٩٤٨، وأنّ الجيش المصري هاجم نيريم في اليوم التالي. وقد شارك بوبرمان في الهجوم على معين أبو ستة (ومثلَه فعل أهاروني)، ولكنّه حين دخل منزلَ أبو ستّة كان فارغًا، «على ما أذكر،» كما قال.

تحدّيتُ ما ذكره فقلتُ: «لقد وَصَفَ ستينه المنزلَ في مذكّراته. وقال إنّ منزل أبو ستّة يَكْشف عن غنًى لا يصدَّق، وإنّ من بين الكنوز سيفًا بدويًا فضيًّا جميلاً هناك.»

«لم أرَ هناك سيفًا قطّ،» أجاب بوبرمان.

أعطيتُ السمّاعة لأهاروني.

«لكنّني أعتقد أنّ السيفَ كان في يدكَ،» قال أهاروني في الجزء المقابل للسمّاعة من الهاتف.

عادت السمّاعةُ إلى يدي.

حَثَثْتُ بوبرمان على إعطائي دليلاً: أيَّ شيء؛ ولو رابطًا غامضًا.

قال: «حاييم بار – ليڤ كان مولعًا بالخناجر والسكاكين والحربات والسيوف من كلّ الأنواع. فإنْ وقع السيفُ في أيدينا فعلاً، فإنّني أفترض أنّه وقع في يده بالذات، لفترةٍ قصيرةٍ أو نحو ذلك.» إلاّ أنّ حائطًا رفيعًا فحسب كان يَفْصل مهجعَ بوبرمان عن مهجع بار – ليڤ. فلو وقع السيفُ في يد بار – ليڤ لعرف بوبرمان ذلك بالتأكيد. ثم إنّ ستينه (أهاروني) كان هناك آنذاك.

ربما عليّ، إذنْ، أن أتحدّث إلى أرملة بار – ليڤ، اقترح بوبرمان. إلاّ أنه شكّ في أنّها تستطيع المساعدة.

حين أعدتُ السمّاعةَ إلى أهاروني أومأ برأسه ثم تمتم: «أتساءل لماذا قال ذلك،» مشيرًا إلى ما سبق أن ذكره بوبرمان من أنّه حين دَخَل منزلَ أبو ستّة وجده فارغًا. «لا أستطيع أنْ أتجنّب اتهامَه بالكذب الصُّراح. فهو نموذجٌ لرجل المخابرات الذي يعتقد أنّ عليه أن يَسْكتَ عن بعض الأمور.»

طلَعَ أهاروني باقتراحاتٍ إضافية لتحديد موقع السيف: أن نبحث في المتاحف والأرشيفات التابعة لكيبوتزيْن، ريڤيڤيم ونيريم.

افترقنا وقد اتفقنا على أنّ الطمعَ هو في أساس كلّ الشرور الاجتماعية والسياسية. وبعد أن كنتُ قد أرسلتُ رسالةً إلكترونيةً إلى سلمان أطلبُ فيه معلوماتٍ عن بيت ألفا، تلقّيتُ منه عند عودتي الرسالةَ التالية:

«عزيزي أوري،

بيت ألفا وحفتسيباه مستعمَرَتان مبنيّتان على أرض خربة بيت ألفا. إنّه مكان غنيّ بالمياه. وقد بُنيتْ مستعمرةُ بيت ألفا في ٤ تشرين الثاني ١٩٢٢. وهذا يفسِّر لماذا لا تَظْهر خربة بيت ألفا إلاّ في خرائطَ سابقةٍ فقط.»

في اليوم التالي، ١٨ تشرين الأول، اتّصل أهاروني ليخبرني أنّه هاتَفَ تامار بار – ليڤ بعد رحيلي، وأخبرها بزيارتي، وسألها إنْ كانت تَعْلم أيّ شيء عن سيف أبو ستّة. قالت بار – ليڤ إنّها لم تكن، في أيّ زمن، تحبّ مجموعةَ الأسلحة التي يقتنيها زوجُها، وإنّها أهدتها جميعَها بعد موته إلى أصدقاء وأقارب. وأضافت أنّها تتذكّر وجودَ سيفٍ كبيرٍ يتدلّى في غرفة الجلوس، لكنّها تعتقد أنّها أهدتْه هو أيضًا.

بعد حوالى ثلاثين دقيقةً اتّصلتْ بار – ليڤ [بأهاروني] مجدّدًا. فقد تذكّرتْ فجأةً أنّها وضعت السيفَ على الرفّ الأعلى من المكتبة. فجاءت بسلّم ونظرتْ. كان السيفُ هناك!

غمرني الابتهاجُ، واتّصلت بتامار بار – ليڤ فورًا. نعم، السيف في حوزتها؛ ونعم، سيُسْعدها أن تعطيني إياه. قلت إنّني سأكون في منزلها عند السابعة مساءً.

تامار بار – ليڤ (١)

ماذا لو غَيّرتْ بار – ليڤ رأيَها بحلول المساء؟ ماذا لو نصحتْها عائلتُها أو صديقٌ لها في جهاز الأمن الإسرائيلي أو الاستخبارات الإسرائيلية بعدم إعطائي السيفَ؟

في الثانية إلاّ ربعًا من بعد ظهر ١٨ تشرين الأول ٢٠٠٥، قرعتُ أنترفون منزل بار – ليڤ. ثمة حديقةٌ أمامية كبيرةٌ نوعًا ما، وتحظى بعنايةٍ جيدة، وتُفْضي إلى ڤيلا مريحة ولكنّها غيرُ باهظة، شأنَ المنزل الذي يَشْغله جيرانُها، آلُ أَدَنْ.

«أنا أوري ديڤيس،» قلتُ، «وقد جئتُ باكرًا. لم أَقْوَ على الانتظار.»

امرأةٌ في التاسعة والسبعين، مرحِّبةٌ، جميلةٌ، مفعَمةٌ بالحيوية، قادتْني إلى الداخل، وعَرَضتْ عليّ الشايَ ودردشةً قصيرةً إلى مائدة المطبخ. بقيتُ هناك، فيما ذهبتْ لتأتي بالسيف.

«أتريدينني أن أعطيكِ إيصالاً باستلام السيف؟» سألتُ.

«آه، لا،» قالت، «أنا سعيدةٌ بإعطائكَ إيّاه. آملُ أن يُسْهم في اتّجاه التسوية، كما قلتَ.» وكانت قد أخبرتني أنّ بعضَ الأسلحة التي تكرهها كثيرًا قد أهدتْها في مناسبات بارميتزڤاه [حين يبلغ الولدُ اليهوديُّ الثالثةَ عشرةَ، وهي سنُّ تحمُّلِ المسؤولية والواجب الدينييْن – الآداب]. لم أتمالكْ نفسي من التساؤل عن سبب إرسالها هديةً تكرهها (مثلما أكرهها) إلى مناسباتٍ كتلك.

ومع ذلك أردتُ توثيقَ التسلّم والتسليم، واقترحتُ أن يتمّ التقاطُ صورةٍ تذكارية. أحد الجيران أجابنا إلى طلبنا بفرح، وتُمْكن رؤيةُ الحصيلة على الصفحة التالية:

تامار بار ـ ليڤ تسلِّم أوري ديڤيس السيفَ.

غـادرتُ المنزلَ، وعـدتُ إلى سيـارتي وأنا أَقْبض على السـيف بيـدي، عـازمًـا على وضـعـه، وبأسـرعِ وقتٍ ممكن، في عـهـدة صديقي المحامي توفيق جبارين.

ما إنْ تجاوزتُ عتبة بيت توفيق حتى سلّمتُه السيفَ، فبدأ بفـحـصـه بعناية. كـان توفيق هو مَنْ مـيّـزَ الكلامَ المنقـوشَ بأحرف عبريةٍ خفيّةٍ على الغِمد: «إلى قائد الأركان بار ـ ليڤ، بمناسـبة زيارتك عشـيـرةَ العظاظمـة، من الشـيخ عـودة أبو معمّر، ١٨ نيسان ١٩٧١.» ورأى توفيق أنّ الغِمْدَ الأصلي، خلافًا للغِمْد الذي تفحّصه للتوّ، كـان مرصَّعًـا بالذهب والأحجار الكريمة.

أرسلتُ إلى سلمان [بالبريد الإلكتروني] الصورةَ الرقميةَ أعلاه، فأكّد أنّ السيف يبدو كسيْف أبيه. كانت ثمة وسيلةٌ وحيدةٌ للتثبّت من ذلك: أن أُجريَ مقابلةً مع عودة أبو معمّر.

كان عودة أبو معمّر، وما يزال، متعاملاً رئيسيّاً مع الجيش الإسرائيلي في النقب. وليس مستبعَدًا أن يكون سيفُ أبو ستّة قد وقع بين يديْه أثناء التطهير العرقي لمعين أبو ستة، وأنّه تمّ نقشُ الكلمات على الغِمد في مرحلةٍ تاليةٍ وأُعطي من ثم إلى رئيس الأركان بار ـ ليڤ. على أنّ شهادة معمّر أبو عودة لا يُمْكن الركونُ عليها؛ إذ يَصْعب كثيرًا الركونُ إلى شهاداتِ العملاء. لكنْ كان ذلك كلَّ ما كان ينبغي أن نواصله.

الجنرال المتقاعد آرييه (ستينه) أهاروني (٢)

اتصل بي آرييه أهاروني مجدّدًا في السادس من تشرين الثاني ٢٠٠٥، التاسعة صباحًا.

أخبرتُه عن الكلمات العبرية المنقوشة على غِمْدِ السيف الذي أعطتني إيّاه تامار بار ـ ليڤ. لم يكن متيقّنًا من شعوره، قال لي، وذاكرتُه عن ذلك الحدث مهتزّة، ولكنّ المسألةَ، منذ أنْ وطئتُ عتبةَ منزله، تُراود بالَه لسببٍ ما. والآن يبدو أنّه يتذكّر، كما قال، أنّ السيف أُعطي إلى كيبوتز ريڤيڤيم بعد المعركة المرّة في بير عسلوج، تقديرًا للمقاتلين الخمسة عشر الذين فُقدوا هناك. وقال أهاروني إنّه يُحْتمل كثيرًا أن يكون السيفُ ما زال في متحف كيبوتز ريڤيڤيم أو أرشيفاته.

إلى كيبوتز ريڤيڤيم، المشيَّد عامَ ١٩٤٣، يُعزى الفضلُ في أنّ النقب خَضَعَ لسيطرة الجيش الإسرائيلي وضُمّ في نهاية المطاف إلى دولة إسرائيل. فقد قاومتْ ريڤيڤيم الهجومَ العسكري المصري وقدّمتْ إسهامًا مهمّاً في نجاح الاستعمار السياسي الصهيوني في جنوبي البلاد.

هاتفتُ أمانةَ سرّ الكيبوتز، فأُحِلْتُ على ياعاقوڤ (يانقله) شِمِشْ، وهو محاربٌ قديمٌ من العام ١٩٤٨ وعضوٌ رفيعٌ في كيبوتز ريڤيڤيم.

وافق شِمِشْ على لقائي في اليوم التالي مباشرةً، الثلاثاء في الثامن من تشرين الثاني، الساعة الثالثة عصرًا.

ياعاقوف (يانقله) شِمِشْ

تبيّن أنّ يانقله شِمِشْ رجلٌ في التاسعة والسبعين، مفعَمٌ بالحياة، ودودٌ، يتمتّع بصحةٍ جيدةٍ وعقلٍ راجح.

«جئتُ إلى ريڤيڤيم بحثًا عن سيف،» قلت.

«آه،» ردّ شِمِشْ فورًا، «غير أنّ السيف لم يعد هنا. لقد سُرِق.»

«أتقصد سيفَ الشيخ حسين أبو ستّة؟» سألتُ مقاطعًا، وأنا أكاد أعجز عن كبح لهفتي.

«آه، لا،» ردّ شمِشْ، «لقد كان ذلك سيفَ الشيخ سعيد ابن سعيد، وهو الشيخُ الأولُ لعشيرة العظاظمة، وخالُ الشيخ عودة أبو معمّر. يقال بأنّ الشيخ عودة أبو معمّر عَبَرَ الحدودَ إلى مصر وقَتل خالَه ليثأرَ من مختار ريڤيڤيم، أرييه يحيلي، الذي قُتل في كمين حوالى العام ١٩٤٩. لقد كان ولاءُ الشيخ عودة أبو معمّر لدولة إسرائيل، في حين كان ولاءُ خالِه لمصر. وكان أرييه يحيلي وعودة أبو معمّر أخويْن لحًا. وبعد أن قَتَلَ عودة خالَه، أخذ سيفَه وقدّمه غنيمةً لكيبوتز ريڤيڤيم. وذاتَ يوم اختفى السيفُ. لقد سُرِق.»

«ما كان شكلُ السيف؟» سألتُ.

«آه،» قال شِمِشْ، «كان عيّنةً رائعةً، طولُه حوالى متر ونصف المتر، مزيّنٌ بالحجارة الكريمة، مُغْمَدٌ في ما يُرجَّح أن يكون غِمدًا فضّيًا.»

خطر في بالي أنّ السيف الذي يَقْبع آمنًا في عهدة المحامي توفيق جبارين قد يكون فعلاً سيفَ سعيد ابن سعيد، المسروقَ من قاعة إحياء المناسبات في كيبوتز ريڤيڤيم، وأنّ حجارته الكريمة قد نُزعتْ عنه، ثم أعطاه الشيخ أبو معمّر إلى قائد الأركان الإسرائيلي بار ـ ليڤ.

تامار بار ـ ليڤ (٢)

في التاسع من تشرين الثاني اتصلتْ بي تامار بار ـ ليڤ حاملةً إليّ أخبارًا مذهلة. ففي اليوم الذي تلا زيارتي، اتّصل بها الرئيسُ السابقُ لجهاز الموساد الإسرائيلي (١٩٦٣ ـ ١٩٦٨) مائير أميتْ ليسألَها عن سيف عودة أبو معمّر. وحين أخبرتْه بأنّها أعطتْه إلى أوري ديڤيس قبل يوم، «استشاط غضبًا.» كانت تامار بار ـ ليڤ من الاستقامة الخلقية بحيث لم تطلبْ منّي إعادة السيف إليها، غير أنّها أوحتْ بذلك. ولم أكن أنوي موافقتَها.

يبدو، إذن، أنّ خطوطَ هاتفي، أو خطوطَ هاتف تامار بار ـ ليڤ، أو خطوطَنا نحن معًا، كانت مراقبةً (لأسباب مختلفة على سبيل الافتراض)، وأنّ واحدةً من «الوكالات الأمنية» الإسرائيلية قرّرتْ أن تتجاهلَ لاقانونيةَ التنصُّت وأن تستغلَّ المعلوماتِ المُسْتَرَقة. أتساءل الآن كيف تشعر تامار بار ـ ليڤ حيال الأمرِ كلّه.

الشيخ عودة أبو معمّر

استقبلني الشيخ عودة في شُقيب السلام في ١٤ كانون الثاني ٢٠٠٦، مرتديًا معطفًا أبيضَ ذا خطوطٍ ذهبية ومزيَّنًا بياقة ذهبيّة. لا شكّ في أنّه يتخطّى التسعين من عمره، وثقيلُ السمع.

«أنا مهتمّ بثلاثة سيوف،» هكذا عرّفتُ بنفسي وبمهمّتي. «الأول هو سيفُ الشيخ سعيد ابن سعيد، الذي سُرق من قاعة إحياء الذكريات في كيبوتز ريڤيڤيم. والثاني هو سيفُ الشيخ حسين أبو ستّة، المسروقُ من منزله في معين أبو ستّة. والثالث هو السيف الذي قدّمتَه بنفسك إلى رئيس الأركان حاييم بار ـ ليڤ بمناسبة زيارته عشيرةَ العظاظمة عامَ ١٩٧١.»

لم يزد الشيخُ عودة الكثيرَ إلى ما كنتُ قد عَلِمتُه من شِمِشْ في ما خصّ سيفَ خاله سعيد ابن سعيد. غير أنّه عدّل الروايةَ في ما خصّ دورَه فيها: إذ لم يكن هو مَنْ أخذ السيفَ إلى كيبوتز ريڤيڤيم، ولا جُلِب السيفُ إلى هناك بعد أن قَتَلَ خالَه. فخلال معركة مخفر عسلوج، حيث قُتل يحيلي، قَبَض مقاتلٌ متحمّسٌ شابٌّ، يتوقُ إلى «قتلِ اليهود،» سيفَ ابن سعيد واندفع به إلى ساحة الوغى، فقُتل على الفور، وحُمل السيفُ غنيمةً إلى كيبوتز ريڤيڤيم.

أما بالنسبة إلى سيف أبو ستة، فقد أحالني الشيخ عودة على أقارب الشيخ سليمان الصانع من عشيرة الطرابين؛ وكان هذا، بحسب الشيخ عودة، أحدَ اثنيْن ماتا من علية بدو النقب، وتحالفا مع اليهود، وكان هو [الشيخ عودة] ثالِثَهم. وأعلمني أنّ عَليَّ، من أجل الحصول على معلومات عن معين أبو ستّة، أن أقابل أقاربَ الشيخ سليمان الصانع، ولاسيّما الشيخ محمود الصانع، ابنُ أخيه عبد اللّه. أما السيف الذي قدّمه إلى بار ـ ليڤ فقد اشتراه من غزة وهرّبه إلى إسرائيل.

الشيخ محمود الصانع

عشيرة الشيخ الصانع، عشيرةُ طرابين الصانع، رُحّلتْ أولَ الأمر من أراضيها في غربي النقب أثر حرب ١٩٤٨. وقد أُعطيتْ أراضيها الشاسعةُ والخصبةُ إلى الكيبوتزات والموشافات [مستوطنات تعاونية تحوي مزارعَ فرديةً] التابعةِ لمجلسيْ أشكول وميرهاڤيم الإقليمييْن ولبلدة أوفاقيم المرصودةِ للتنمية. ومع صيرورة موشاف «أومر» المنطقةَ السكنية المفضّلةَ للطبقة الوسطى العليا اليهودية في بئرِ السبع، وجَدَتْ هذه الطبقةُ في قربها من البلدة الأكواخية الفقيرة التي يَقْطنها طرابينُ الصانع أمرًا يزداد إزعاجًا يوم بعد يوم. وبدلاً من وضع طرابين الصانع تحت ولاية أومر القضائية، وإعطائها

من ثم الامتيازاتِ التي تتمتّع بها البنى التحتيةُ للبلدة الأخيرة بحيث تتحوّل أومر إلى موقعٍ مختلطٍ (على ما يَجْدر بها أن تكونه)، عَزَمت السلطاتُ على إزالة «الوسخ» وإسكانِ طرابيين الصانع في مكانٍ جديدٍ آخر.

بلغتُ طرابين الصانع حوالى الخامسة من بعد الظهر، وأُرشدتُ إلى بيوت التَّنَك (الصفيح) حيث يعيش الشيخ محمود. رحّب به الشيخ محمود، الذي كان يرتدي جلابيةً بيضاء، بابتسامةٍ واسعةٍ مغمورةٍ بلحيةٍ كاملةِ البياض.

كان رجلاً كهلاً، أكبرَ مني بأربع سنوات (وُلد عامَ ١٩٣٩)، وهو إلى حدٍّ كبير جداً جزءٌ من شبكة بدويين متعاملين [مع إسرائيل] تسبّبتْ في خرابٍ كبيرٍ لشعبها نفسِه.

قال إنّه لم يرَ سيفَ أبو ستّة، وإنّ السيف على حدّ علمه لم ينتقلْ إلى يد أيٍّ من أفراد عائلته، غير أنّه قد يكون مع نسيم كزّاز من موشاف أومر، وهذا الأخير كان ـ من بين أمور أخرى ـ الحاكمَ العسكريَّ السابقَ لقضاء خان يونس في قطاع غزّة المحتلّ. فكزّاز، شأنه شأن بار ـ ليف، يَجْمع الأسلحة، وقد رأى الشيخُ محمود مجموعةَ أسلحته بأمّ عينه في بيته في أومر، وربّما كان سيفُ حسين أبو ستّة من بينها.

نسيم كزّاز

بحلول السادسة مساء كنتُ على اتصالٍ بنسيم كزّاز لأشرحَ له أنّه قد تمّت إحالتي عليه وعلى مجموعة أسلحته، وذلك أثناء قيامي بسلسلة من المقابلات بحثًا عن سيف سلمان أبو ستّة. وطلبتُ الإذنَ بالاطّلاع على سيوفه، وربما التقاط صورةٍ لها.

لم يكن كزّاز متعاونًا معي، بل وكان عدائيّاً أيضًا. ادّعى أنّه وَزّع مجموعةَ الأسلحة على أصدقائه، بمن فيهم البدو، وقال إنّه احتفظ بسيفٍ واحد فقط، وإنّه لن يَسْمح لي برؤيته. لم يكن يملك الاهتمامَ، ولا الوقتَ، لمثل هذه الأمور.

ولكنْ في السابعة والنصف مساءً اتّصل بي وبدا توفيقيّاً. تساءلتُ عن السبب الذي دفعه إلى تغيير تصرُّفاته خلال ساعة ونصف فقط. لعلّ فضولَه تملّكه.

أستمع كزّاز إلى حديثي كلّه وقال إنّه أعطى مجموعةَ أسلحته بالفعل، واحتفظ بسيفيْن. سألتُه إنْ كان يَسْمح لي بتصويرهما. قال إنّه لن يَسْمح بذلك، وسألني كيف سأتعرّف على السيف الذي أبحث عنه إنْ رأيتُه. قلتُ إنّ عليّ أن أستشير مَراجعي من جديد وأعودَ بعلاماتٍ محدّدة.

«أفعلْ ذلك،» قال، «وسأبذلُ قصارى جهدي لمساعدتك.»

في سياق الحديث أعلاه ذكرتُ لكزاز أنّ الجنرال المتقاعد أبراهام أَدَنْ كان من الطِّيبةِ بحيث صَوّر لي صورةً لحسين أبو ستّة متقلِّدًا السيفَ موضوعَ البحث. لكنّ ذلك لم يكن بالنسبة إلى كزّاز كافيًا، فاتفقنا على أن أرسل إليه ما قدّمه لي أَدَنْ. أعطاني عنوانَه الإلكتروني، مشدِّدًا من جديد على رغبته في مساعدتي. وفي اليوم التالي أرسلتُ إليه صورتيْ أَدَنْ.

وكان ذلك آخرَ ما توصّلتُ إليه.

قَفْلة

أنا مَدينٌ لسلمان أبو ستّة لوضعي على سكّة الرحلة المؤرَّخة أعلاه، ويُحْزنني أنّه لم يستطعْ أن يقومَ بها بنفسه. واسفاه! إنّ على سلمان ورفاقه اللاجئين الفلسطينيين من العام ١٩٤٨ أن ينتظروا حتى يُبْطَلَ التشريعُ الإسرائيليُّ الأپارتهايدي [التمييزي العنصري] ويُستبدَلَ بدستورٍ ديموقراطي. فإلى حين يتمّ هذا التعديلُ في فلسطيننا الحبيبة، كما جرى في جنوبي أفريقيا، فإنّ الفاعلَ الأساسيَّ الغائبَ في هذه القصة، أيْ سلمان أبو ستة ورفاقَه اللاجئين الفلسطينيين من عام ١٩٤٨ الذين يَبْلغون حوالى خمسة ملايين، ممنوعون قانونيّاً من الاقتراب من هذه الدرب الكاشفة الملهمةِ. وهم اليوم مصنَّفون بـ «المتغيِّبين» بموجب «قانون أملاك المتغيِّبين» في إسرائيل لعام ١٩٥٠.

إلى أن يأتي ذلك الوقتُ، سيُمنع هؤلاء من الالتقاء بمختلف أطياف الناس الذين صادفتُهم في طريقي، ومن الانخراط في البحث عبر الاتصالات الهاتفية والمواجهات المباشرة التي أَثْرتْ كثيرًا تجربتي الفرديةَ والمهنيةَ. وسيُمْنعون من معالجة النكسات التي تزداد توتُّرًا كلّما تمّ التوصّلُ إلى احتمالاتِ اختراقٍ أو تقدّم ما. وسيُمْنعون من التكيُّف مع الإحباطات، ومن الإحساس بصدمةِ الحَنَق، ومن التألّم المشروع بسبب الوحشية الناجمة عن الطمع الكولونيالي والأپارتهايد السياسي الصهيوني الذي كان ضحاياه الرئيسيون الشعبَ الأصليَّ في فلسطين: الشعبَ العربيَّ الفلسطيني.

إنّني أُهدي هذه اليوميات إسهامًا في عودة سلمان أبو ستّة إلى جانب كلّ اللاجئين الفلسطينيين من العام ١٩٤٨، وإسهامًا في استعادة أملاكهم داخل «دولة إسرائيل.» ولا أستطيع أن أفكّر في طريقةٍ أفضلَ لإحياء احتفال الفصح اليهودي لهذا العام من أن أهدي هذا السّردَ إلى سلمان، آملاً في نشره أيضًا.

كما أنّني لا أستطيع أن أفكّر في طريقةٍ أفضل لإنهاء هذا السرد من أن أتوسّلَ إلى كلّ مَنْ يملك أيةَ معلومةٍ قد تُوصِل إلى سيف الشيخ حسين أبو ستّة وكتبه، أن يتفضّل بالاتصال بي على العنوان التالي: uridavis@actcom.co.il

فلسطين